الدولة والأمة الجزائرية فى فكر النخبة الجزائرية المعاصرة
مولود قاسم نايت بلقاسم نموذجا

د. الزواوى بغورة (*)

مقدمة :

ليست قضية الدولة الجزائرية قضية تاريخية يختلف حول وجودها وطبيعتها المؤرخون والمفكرون والباحثون عموماً، بل هى مشكلة الحاضر أيضاً، ذلك أن هذه المشكلة التى تم صياغتها أول مرة فى سياق الخطاب الكولونيالى بغرض تبرير الاحتلال، كانت تطرح كذلك مشكلة حاضر تلك الدولة فى ذلك الوقت، ثم طرحت بوجهيها التاريخى والواقعى فى الحركة الوطنية، وفى مرحلة الاستقلال ، وفى وقتنا الحاضر وخاصة بعد أحداث أكتوبر ١٩٨٨ ، وما تبعها من أحداث واضطرابات سياسية وعنف سياسى وصل فى بعض فتراته حد الحرب الأهلية غير المعلنة، وكل هذا فى زمن قياسى من تاريخ الدولة الوطنية الفتية قلما نجد مثيله فى الدول التى تشاركها الجزائر التاريخ والجغرافيا، مما يعنى أن البحث فى الدولة الجزائرية وفى تاريخها وحاضرها، هو بحث فى إحدى المشكلات الأساسية للوجود الجزائرى.

وعلى هذا فإن المساءلة الخاصة بمفهوم وطبيعة الدولة، هى بمعنى من المعانى، مساءلة لكياننا وذاتنا وهويتنا ووجودنا فى التاريخ، وأنه إذا كان التساؤل عند بعض المثقفين الجزائريين مرده الانكار، الانكار الاستعمارى لهذا الوجود والكيان، فإنه يجب، فى نظرنا، أن يخرج من دائرة الفعل ورد الفعل، من القول ونقيضه ، من

(*) قسم الفلسفة - جامعة منتورى - قسنطينة.

الأطروحة ونقيض الأطروحة، من النفى والإثبات، إلى حالة المساءلة والتحليل والعقلانية والموضوعية، وأن يكون ذلك كله فى إطار كتابة تاريخ حاضرنا.

وسنحاول فى هذا البحث أن نحلل هذه القضية من خلال آراء بعض المثقفين الجزائرين وكيف فكروا طبيعة الدولة، وانطلاقاً من آية خلفية فكرية وسياسية. من هنا فإننا سنسائل المفهوم وبنيته وعناصره، ليس فى التاريخ لأن هذا موضوع المؤرخين، وليس فى نموذج نظرى لأننا لا نهدف إلى بناء نسق يتجسد فى مسار تاريخى سابق عن الأحداث والوقائع، بل أننا سنتوقف عند نصوص معينة لمثقفين جزائريين حاولوا تفكير الموضوع من منطلقات مختلفة. وإذا كان المفهوم نتيجة نضال وممارسة ودفاع ورد فعل، وأن المثقف يستعين فى ذلك بكل ما يسانده ويدعمه ويستبعد كل ما يشكك فى منظوره، وهو أمر مفهوم، نتيجة للمرحلة التاريخية والضرورات السياسية والفكرية، فإن هذا التصور لا يجب إبعاده عن امتحان النقد التاريخى والمنطقى. وعليه سنبدأ بالإشارة إلى نص لمؤرخ ومفكر تونسى، ونصوص كثيرة ظهرت بعد أحداث العنف السياسى، تعيد طرح مسألة طبيعة الدولة والأمة الجزائرية، ولكن من دون أن ننساق إلى عملية الرد والقلب وإنما سنعمد أساساً إلى تحليل المنطلق الداخلى لمثل هذه الأطروحات وذلك بعد عرض لردود الفعل فى التاريخ الجزائرى الحديث والمعاصر . بتعبير آخر سنناقش بداية آراء المؤرخ التوسنى الذى يعد بوجه من الوجوه بعض أطروحات الأنتربولوجيا الكولونيالية، وثانياً نعود إلى جذر المسألة كما طرحها أول مرة فرحات عباس، وأخيراً نتوقف عند مثقف متحمس ومدافع عن وجود الدولة واستمراريتها فى التاريخ.

أولاً : فى نص الأزمة :

كتب المؤرخ والمفكر التونسى المعروف «هشام جعيط» فى مجلة Jeane Afrique بتاريخ ١٠ فيفرى ١٩٩٨ مقالاً بعنوان معبر كفاية :« الجزائر - التاريخ والوحشية» أكد فيه ما عملت الحركة الوطنية والنخبة الجزائرية فى غالبيتها ومعظمها على تفنيده طيلة سنوات الحركة الوطنية والدولة الوطنية ، اقصد هوية الجزائر ووجود الدولة

جزائرية من حيث أصالتها واستمراريتها، حيث أكد هذا المؤرخ من جديد ما نصه : أن «غياب تقاليد الدولة فى منطقة المغرب الأوسط يفسر بالمرة الاستعمار الفرنسى والتراجيديا الحالية - يقصد الحرب الأهلية غير المعلنة» أنها الأطروحة الأولى، التى تعيد النقاش إلى نقطة الصفر، وإلى الجدل الأول، وإلى المسألة الأولى وهى: هل عرفت الجزائر فكرة الدولة وأية دولة وما طبيعتها وتاريخها ؟ تعقبها أطروحة ثانية وهى: «من المؤكد أن العمق التاريخى يشكل خصوصية بلد من البلدان، لأن التاريخ يتم معايشته، من طرف الشعوب على المستوى الحضارى، وبما أنه كذلك فهو يشكل ثقلاً على البيانات الاجتماعية والفكرية والسياسية، وظهور العنف فى الجزائر، دليل عن غياب الدولة فى التاريخ». ويعتقد المؤرخ أنه من الممكن فهم دوامة وتراجيديا العنف فى الجزائر انطلاقاً من سنوات الاستقلال ولكنه يفضل العودة إلى التاريخ البعيد من أجل أظهاره، وهذه هى الأطروحة الثالثة والتى تقول أن سبب العنف مرده إلى : « الضعف البنيوى للدولة والحضارة فى الجزائر، مقارنة بمجمل المغرب العربى» إلا أن هذا التاريخ البعيد لا يتجاوز عند المؤرخ الفتح الإسلامى الذى من خلاله وانطلاقاً منه، يقيم مقارنة بين الجزائر والمغرب وتونس. تونس فى نظر المؤرخ هى أرض الإسلام والسلطة الإسلامية الأولى، حيث المجتمع التونسى الذى تربى على الطاعة، وحيث تشكلت لهذه الغاية بنيات، وبقيت الدولة رغم الهزات بأجهزتها حتى وقتنا الحاضر. والأمر نفسه بالنسبة للمغرب. أما الجزائر فلم تعرف شيئاً من هذا أو معظمه، فجهتها الشرقية أدمجت فى تونس حتى العهد التركى وجهتها الغربية كانت تسبح فى مجال المغرب الأقصى، والإمارات التى تشكلت هنا وهناك بين الشرق والغرب لم تكن لها القوة ولا الانسجام والتوحد، وعاشت فى معظم الأحيان فى تبعية ولم تستطع أن تؤسس تقاليد دولية صارمة ومجذرة فى الواقع الاجتماعى (ووسط البلاد الذى يشكل العاصمة الحالية كانت فراغاً مهولاً. وهكذا، يقول المؤرخ، نستطيع تأويل التاريخ الجزائرى بين جدلية الحرية والخضوع ولكن من دون أن نصل إلى نتيجة مفيدة) أما المرحلة التركية، فإنه إذا كانت فى تونس تشكل مملكة مستقلة تجاه اسطنبول ، فإنه فى الجزائر قد استمرت فى شكل يسميه :

«الجمهورية العسكرية حتى سنة ١٨٣٠» معتمدة على طائفة لم تتجاوز حدود العاصمة وهكذا استمر غياب تقاليد الدولة واندماج واتحاد المجتمع فى الدولة، وهكذا فإن الفرنسيين ما أن استولوا على العاصمة حتى سقط نظام الديات، ورغم مقاومة الأمير عبدالقادر إلا أنه من الواضح أن مجتمعنا بدون نخبة اقتصادية واجتماعية وثقافية لا يستطيع مقاومة استعمار مدمر. «لقد كان ميراث الجزائر هزيلا» يقول دائماً المؤرخ التونسى . فلا وجود لوحدة لغوية، وكل ما هنالك تراث دينى متصوف، ومجتمع غير متجانس. وكان على الاستعمار أن يعمد أكثر إلى تمزيق النسيج الاجتماعى الهش. من هنا حصلت نزع ثقافى وشرذمة، ولقد كانت الثورة التحريرية الحل الذى أدهش العالم. إلا أنه على المستوى الداخلى بقى الشىء الأهم، من هنا فـ«ان التطورات التى عرفتها الجزائر منذ الاستقلال تعكس غياب التجربة السياسية ومعنى أو دلالة الدولة» وهى التى أدت يقول المؤرخ إلى : الحرب الأهلية الدموية، بين طرفين المؤكد فيها، أن الشعب هو الرهينة وحيث المستقبل، فى كل الحالات ، معتم[١].

ثانياً : نص الطرح والنقد :

ان الأفكار - الإطروحات التى قال بها المؤرخ التونسى وغيره بمناسبة العنف السياسى أو الحرب الأهلية غير المعلنة وعلاقتها بالدولة من حيث وجودها وطبيعتها والتاريخ وقوة حضوره فى الحاضر وغياب التقاليد وحضور العنف فى الجسد الاجتماعى وقوة التمرد على النظام والدولة، كل هذه الأفكار تحيلنا إلى ذلك النقاش الذى كان دائرا زمن الحركة الوطنية، ولعلها تحيلنا تحديداً إلى نص مماثل فى الفكرة مغاير فى التعبير، أنه نص فرحات عباس الذى كتبه بتاريخ ٢٧ فيفرى ١٩٣٦ وفى العدد ٢٤ من جريدة L'Entente franco - musulmane وكان بعنوان[٢] En marge

(1) Hichem Djait : Algérie : Histoire et barbarie, in , Jeane Afrique , nº. 1935 , du 10 au 16 février 1998.

(2) Ferhat Abbas : ((En marge du nationalisme . La France c est moi!)) (27 février 1036) in, Le mouvement national algerien, textes , 1912 - 1954 , par , Clude Collot - Jean - Robert Henry , ed , L'harmattan , Paris , 1978, PP. 65-66- 67.

du nationalisme . La france c'ést moi أو على هامش الوطنية: فرنسا هى أنا»
حيث صرح بقوله :« لو أنى اكتشفت "الأمة الجزائرية" لأصبحت وطنيا. . الجزائر باعتبارها وطن، خرافة، لم اكتشفها. لقد سألت التاريخ، وسألت الموتى والأحياء، لقد زرت المقابر: لم يحدثنى عنها أحد»[٣] من دون شك أن منطوق خطاب فرحات عباس يصب مباشرة فى خطاب الإيديولوچية الاستعمارية ويثبت ما حاولت تلك الأيديولوچية خلال قرن تثبيته، تلك الإيديولوجية الاستعمارية الناكرة فى مجملها للهوية الوطنية، فهل يعنى هذا سقوط فرحات عباس فى الإيديولوچية الاستعمارية التى ناضل ضدها؟ كيف نفهم ما كتبه قبل ١٩٣٦ وبعده؟ ان سير الأحداث والتطورات وخاصة ردود فعل أطراف الحركة الوطنية تؤيد الطرح القائل أن فرحات عباس قد سقط فى أطروحة الإيديولوچية الاستعمارية؟ ولكن هذه الردود هى ردود لأطراف فاعلة وواعية بأهدافها، لذا لا يمكن إلا مساءلتها، أو وضعها بين قوسين، لماذا؟ لأن خطاب فرحات عباس يبين أنه كان على وعى تام بالفرضية الإيديولوچية للمستعمر، التى تقوم على أن الجزائر لم تحتل إلا لأنها لم تكن تتمتع بالسيادة وانها كانت دوماً نهباً للأجنبى وأن يوم احتلالها كانت فى فوضى ومتاهة، وأن هذه الإيديولوچية رغم فرضيتها تلك عمدت إلى جملة من الأساليب لمحو الكيان الجزائرى كالتغريب والتهجير والابعاد والاقصاء والادماج والتمسيح والتجنيس

---

(٣) الخطاب فى لغته الأصلية ، كما ورد فى الافتتاحية هو على هذا الشكل

(le nationalisme est ce sentiment qui pousse un peuple à vivre à l''intérieur de frontieres , sentiment qui a crée ce réseau de nations. si j'avais découvert la (nation algerienne) , je serais nationaliste et je n'en rougirais pas comme d'un crime. les hommes morts pour l'idéal national sont journellement honorés et respectés. Ma vie ne vaut pas plus due la leur . Et cependant je ne ferai pas ce sacrifice. L'algérie en tant que patrie est un mythe . Je ne l'ai pas découverte . J'ai interrogé l'histoire ; j'ai intérrgé les morts et les morts et les vivants ; j'ai visités les cimétieres : personne ne m'en a parlé) Ibid, P.66.

ملاحظة : بعد هذا يطرح برنامجه السياسى ، القائم على الاعتاق والتحرر Emancipation الاقتصادى والسياسى للأهلى.

وغيرها. . مما يدل على أن هنالك شيء ما يقاومه هذا الخطاب من دون أن يصرح به. وأن هذه الأساليب ذاتها تركت الجزائرى وبعد أن اغتصبت منه بلاده وأبعد قسرا عن المدنية يفكر بقوة فى هويته وفى بناء مقومات حياته على أسس جديدة[٤].

لذا نستطيع القول أن (الوعى القومى واللغة والدين لم تتبلور كمكونات للشخصية الوطنية إلا داخل حلبة الصراع ضد فرنسا المحتلة)[٥]. وان الاستعمار بإيديولوچيته ووجوده كان عاملاً أساسياً فى ظهور الهوية الوطنية فى ثلاثينيات هذا القرن، وهو ما عبرت عنه مختلف تيارات الحركة الوطنية بمناسبة احتفال الاستعمار بمرور مائة سنة على احتلاله للجزائر، ربما كان ذلك بمفارقة من مفارقات التاريخ، لذا نجد أن مختلف الأطراف رغم اختلافاتها السياسية والأيديولوجية إلا أنها طرحت مسألة الهوية وكان أول خطاب طرح هذه المسألة بحدة وعنف وبسلبية هو خطاب فرحات عباس . فكيف نفهم اليوم هذا الخطاب وملابساته وتداعياته؟ وكيف يمكن القول أن هذا الخطاب يصب مباشرة فى الإيديولوچية الاستعمارية ونحن نعرف ما كتبه فرحات عباس وما ناضل من أجله عبر مراحل مختلفة من حياته السياسية، هل يكفى القول أنه مجرد خطأ، اليس لهذا الخطا أثار ليس فقط على الشخص وإنما على تصور كامل للهوية، تصور سيكون محكوم - وغالباً ما كان ذلك بشكل دائم - بحدة وبحسم؟ ألم يكون لتصور فرحات عباس رغم سلبيته أية أهمية وهل انتهت المسألة باكتشاف خطأ فرحات عباس؟ ما الذى سيفيدنا به فرحات عباس وخاصة فى خطاب ذلك من موضوع الهوية والدولة والأمة؟ نعتقد أن أول درس يجب اعتماد هو للخطا أهميته فى التاريخ، لذا سنرفع عنه حكم الخطيئة والتجريم السياسى، ثم

---

(٤) لقد رد فرحات عباس فى كتابه ليل الاستعمار عن الكثير من مزاعم الإيديولوجية الاستعمارية ، أنظر: د. الزواوى بغورة: النخبة والوعى التاريخى من خلال خطاب: ليل الاستعمار لفرحات عباس، فى أعمال المؤتمر الثانى لمنتدى التاريخ المعاصر حول : الثقافات والوعى الوطنى فى العالم العربى المعاصر، منشورات : مؤسسة التميمى للبحث العلمى والمعلومات، رغغوان - جويلية / تموز ١٩٩٩ .

(٥) محمد حربى : الثورة الجزائرية ، سنوات المخاض، ترجمة نجيب عياد وصالح المثلوث، موفم للنشر، ١٩٩٤، ص٢٠١ .

أن التاريخ والفكر لا يتوقف عند خطاب واحد، اللهم إلا عندما تكون الغاية هى إصدار الحكم، أما الدرس العلمى فيتطلب البحث فى مختلف جوانب الموضوع والنظر فى تطوراته وتحولاته وقبل هذا فى بنيته، أى فى ما كتبه فرحات عباس عن الهوية قبل خطاب ١٩٣٦ وبعده. لأننا نعتقد أن دراسة تراث هذا المثقف والسياسى والمناضل له فائدته، وخاصة فى الموضوع الذى نحن بصدده وسيبين البحث أهمية بعض جوانب الموضوع فى حينها، أما الآن فيجب تفكير أسئلة أخرى ذات أهمية علمية وتاريخية وهى كيف نفهم رد فعل الاستعمار الكولون والميتربول، على ذلك المنطوق؟ هل حصل تقدم فى النظرة الكولونيالية؟ وإلى أى شىء أدت تلك التزكية والتضحية بما يمكن اعتباره تكتيك فرحات عباس؟ لا يمكن، بطبيعة الحال، أن نحلل هنا مختلف مراحل نضال الرجال واقتراحاته وأفكاره، إلا أن ما قاله إجمالاً فى «ليل الاستعمار»[٦] دليل كاف عن الرد السلبى للاستعمار وعن فشل كل محاولاته ، بما فيه ما يمكن عده تكتيكه القاتل أو ذلك التكتيك الذى غيب الاستراتيچية ، وتحول فى فكر الرجل بل نقيض لما كتبه فى ١٩٣٦ . ولكن من جهة أخرى الم يطرح نفى فرحات عباس للهوية الجزائرية، للأمة الجزائرية ، للوطن الجزائرى، للتاريخ الجزائرى مشكلة جديدة يتعين علينا تفكيرها؟ خاصة إذا علمنا أن فرحات عباس لايجهل التاريخ قبل الثلاثينات، ففى العشرينات كتب عن تاريخ الجزائر ورد على مزاعم الاستعمار ، نقرأ ذلك على سبيل المثال فى مقاله (ingratitude et reconnaissance)[٧] كما يرفض أن تكون الجزائر قبل ١٨٣٠ بلد الفقر والمجاعات والحروب، معتمداً على الذاكرة الجماعية وعلى كتابات القادة العسكريين الفرنسيين، وكيفية تفسير المقاومة الباسلة للقبائل الجزائرية ، طارحاً السؤال على مزورى التاريخ. فمثلاً عندما تصف الأقلام الاستعمارية القبيلة بشكل سلبى يرد على ذلك ويؤكد أن القبيلة كانت البنية الأساسية للمجتمع الجزائرى، ورغم التأويلات ومغالطات

---

(٦) انظر دراستنا السابقة.

(7) Ibid , PP. 130-131-132.

المؤرخين الفرنسيين، فان فرحات عباس يسجل وبموضوعية ان ما كان ينقص هذه القبائل هو (السلطة المركزية القائمة على أساس مبادئ الأمة)[٨]. هذه مقدمة أساسية لفهم أطروحة لا وجود للأمة الجزائرية. خاصة وأنه يعترف أن فرنسا قد حققت الوحدة الترابية والإدارية للمجتمع الجزائرى.

يقول فى كتابه (الشاب الجزائرى) (إن الغزو الفرنسى قد أفقد الجزائر شخصيتها.. لقد تحولت إلى مستعمرة)[٩]. أمام هذه الفكرة الواضحة، كيف يمكن أن نقبل ما قاله فى الثلاثينات؟ وكيف يمكن أن نقبل بما قالته الأطراف الأخرى؟ كما أكد على : أن العرب - البربر قد اثبتوا منذ أربعة عشرة قرناً مصير الجزائر، هذا المصير لا يمكن أن يصنع فى غيابنا غدا؟[١٠].

ويتحدث عن المقاومة، ليس فقط المقاومة المسلحة، بل عن مقاومة الفلاحين وعن التاريخ المشترك فى الألم يقول مثلا(الجزائر العسكرية لم تستطع المقاومة الاعشرين(٢٠) يوما اما الجزائر الفلاحية فقاومت نصف قرن، وكان ذلك فى كل مرة اتيحت لها الفرصة للدفاع عن وجودها وممتلكاتها وحريتها. ان هذه الآلام التى يتحدث عن غالبية من يصفون أنفسهم بـ"الجزائريين" يجهلونها أما نحن نعرفها. لقد تعلمناها من أفواه جداتنا ونحن صغار)[١١]. ولكن هذا لا يمنعه من إقرار واقع الهزيمة، ومن أنه على أنقاض المجتمع الجزائرى التقليدى، ثم إقامة مجتمع جديد بسواعد الجزائريين رغم الاستعمار. لقد كان بالإمكان أن تكون هنالك سياسة فرنسية قائمة على الرقى والتعليم والتعاون والاندماج بين الثقافتين الإسلامية والفرنسية ولكن فرنسا اختارت سياسة استعمارية قائمة على الأبعاد والتجهيل والتهميش والتفقير، ولم تعمل على الوفاق والمصالحة بين العرقين. فـ(هنالك سياسة واحدة

---

(8) Ibid , P.131.

(9) Ibid, P.132.

(10)Ibid, P.143.

(11) Ibid, 117.

تستطيع أن تحفظ مصالح فرنسا والحضارة: مشروعية انعتاقنا ونهضتنا الاجتماعية)[١٢].

وإذا كانت مقدمات الشاب الجزائرى لا تساعدنا على فهم منطوق ١٩٣٦ فإن خطاب (ليل الاستعمار) وخطاب (تشريح ثورة) ، يسمحان لنا بتشكيل منظور فرحات عباس وخاصة فيما يتعلق بالدولة الجزائرية. فلقد كتب عن مظاهر تزييف التاريخ فى ليل الاستعمار ما مضمونه ، أن قيام الاستعمار بـ :

١ - تقويض الدولة الجزائرية وتفكيك إطارات المجتمع العربى الاجتماعية والسياسية ، أدى إلى خلق مشكلة وطنية وإنسانية لم يكن فى وسع الاستعمار ولا فى إمكانه حلها، وأن الإصرار على تحويل وتبديل الأهالى الجزائريين بالسكان الأوروبيين، قد أدى إلى تكوين نظام اجتماعى ممسوخ وعنصرى ازداد قوة مع ازدياد القوانين الاستثنائية فلقد منحت للأوروبى حريات واسعة فى حين تم تكبيل الجزائرى بقيود لا متناهية. وان الاستعمار بتنفيذه لهذه السياسة الإجرامية، قد (سد الطريق فى وجه المستقبل)[١٣]. وخاصة ذلك المستقبل الذى كان يتصوره والقائم على التعاون والتعايش بين المجموعة الأوروبية والجزائرية أو إصلاح ذات البين. وأن ما زاد الوضع تعقيدا هو، تسلح الاستعمار بأيديولوچية عنصرية، جعلته يعتمد على التزييف كنهج وطريقة لعرض كل ما تعلق بالجزائر وتاريخها ومن مظاهر هذا التزييف يذكر :

١ - القطر الجزائرى قطر شاغر وخالى.

٢ - انعدام أو غياب الدولة الجزائرية.

٣ - انعدام وجود للشعب الجزائرى.

٤ - إنكار لغة وثقافة الشعب الجزائرى.

---

(12) Ibid, P.122.

(١٣) نفس المصدر، ص ٥٦.

٥ - تحويل المجتمع وأفراده إلى أشباح ورجال خارج القانون.

٦ - الاعتماد على أيديولوچية عنصرية تعلى من العنصر الأوروبى وتسفه وتحط من الإنسان الجزائرى.

أن هذه المعطيات التى بنى عليها الاستعمار، سياسته ونهجه فى دراسة الجزائر وتاريخها، تعتبر فى نظر فرحات عباس عوائق فى وجه كل إمكانية لإقامة حوار وتعايش بين الشعبين هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن هذه المعطيات مبنية على الافتراء والتزوير ، مع العلم أنه ليس بالإمكان أن يخفى: (على شعب ما تاريخه إلى أبدا الأبدين، فلابد أن يطلع عليه فى يوم من الأيام ولابد أن يكتبه بنفسه كما يكتب الفرنسيون تاريخهم)[١٤]. ولذلك قدم بعض الأفكار التاريخية فى سياق رده على اطروحات الأيديولوچية الاستعمارية ومن هذه الأفكار :

١ - فى سنة ١٨٣٠ كانت الجزائر دولة ذات سيادة، وأنه إذا كان تحطيم هذه الدولة يبين قوة فرنسا فإن هذا لا يعنى عدم وجود دولة جزائرية، أن هذه الدولة بحدودها الحالية تعود إلى سنة ١٥١٥ ولم يكن نظامها ، لا أقل ولا أكثر احكاما من دول أخرى كثيرة. وكانت لهذه الدولة حياة وطنية ودولية اعترف بها عدد كبير من الدول الأوروبية وغير الأوروبية.

٢ - كان للجزائر حدود معروفة ومعترف بها دولياً.

٣ - كانت اللغة العربية هى لغة البلاد الرسمية وكان التدريس منظماً.

٤ - كان عدد سكانها أثناء الاحتلال الفرنسى لها وطبقاً لبعض الإحصائيات، وخاصة ما ذكره حمدان بن عثمان خوجة، يبلغ حوالى عشرة ملايين نسمة. ولعل ما تجب الإشارة إليه فى هذا السياق هو : أن فرحات عباس فى تقريره لمثل هذه الحقائق، يعتمد أساساً على الكتاب والمؤرخين الفرنسيين والأوروبيين ويذكر لهم نصوصاً كثيرة فى هذا المجال.

---

(١٤) نفس المصدر، ص ٥٨.

وعليه فإن هنالك تحول فى خطاب فرحات عباس، تحول من الإنكار إلى الإثبات، وأن عملية التحول هذه تطرح أكثر من مشكلة على مستوى مؤلف الخطاب والوظائف التى يراد لها أن يقوم بها هذا الخطاب، وإذا كان من غير الممكن الإجابة الآن على هذه الأسئلة، فإنه من المفيد عملياً الإقرار بأن هذه الأفكار أو عناصر الخطاب الإثباتية هى التى ستكون نفس عناصر خطاب الدفاع لمولود قاسم رغم إنكاره لها أو عدم إدراكه للتحول الحاصل فى خطاب النفى والإنكار.

ثالثاً : نص الدفاع :

خص مولود قاسم نايت بلقاسم مسألة الكيان والهوية والدولة والتاريخ جل أعماله وخاصة «انية وأصالة» الصادر سنة ١٩٧٥ و «شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة ١٨٣٠» المنشور سنة ١٩٨٥ و «أصالية أم انفصالية» الذى طبع ١٩٩١ ويتكون الكتاب الأول والثالث من مجموعة من المقالات والأحاديث والخطب والمحاضرات والتعليقات والتعقيبات ، أما الكتاب الثانى فهو دراسة بمقدمة وخاتمة وتعليقات على معاهدات واتفاقيات مبرمة بين الجزائر ومختلف الدول الأجنبية وخاصة فرنسا، لذا فهو كتاب يتضمن نصين أساسيين ، نص المؤلف أى المقدمة والتعليقات والخاتمة ونصوص المعاهدات والإتفاقيات بوصفها شواهد وأدلة.

أن هذه النصوص - الخطابات مكتوبة بالعربية والفرنسية، خاصة المقالات المنشورة فى جريدة المجاهد على سبيل المثال وبعض الحوارات[١٥]، موجهة إلى مستويات مختلفة، إلى الجماهير بغرض التعبئة السياسية والحزبية وتوجيه الرأى العام، وموجه إلى المعارضين الذين يأخذون صفة النقاد المشوهين أو القوم التبع، وإلى المثقفين والعلماء والكتاب والطلبة كما هو الحال فى ملتقيات الفكر الإسلامى أو إلى النخبة التى يفترض أن تتولى زمام السلطة وإلى الشباب رجال الغد وإلى القراء عموماً، وهذه الخطابات منشورة أولاً فى الجرائد والصحف والمجلات المكتوبة أو

---

(١٥) لم نستطع الإطلاع على هذه المقالات فى أصلها وإنما قرانها بالصورة التى جمعها ونشرها المؤلف فى أعماله المشار إليها.

منقولة عبر الشاشة والإذاعة فى شكل ندوات وموائد مستديرة منقولة أيضاً عبر الأثير وعبر الشاشة، وإذا كان من غير الممكن تحليل شامل لخطاب مولود قاسم، فإنه من الضرورى موضعته ضمن خطابات الدولة الوطنية، أنه خطاب يعكس السلطة فى صورة المعرفة ويتمحور حول إشكاليات معينة مثل إشكالية الدولة - الأمة أو إشكالية- التاريخ - الهوية.

وعليه نستطيع القول، بعد هذا الوصف لخطاب مولود قاسم أو مجموع النصوص المنتسبة إليه، أنها خطابات ذات مستويات مختلفة وموجهة إلى قراء مختلفى المستوى والثقافة ومحكومة بأهداف وغايات أو أنها تؤدى وظائف معينة، إذ لا يخفى على أحد أن مولود قاسم رجل الدولة والنظام السياسى ليس بسبب الوظائف والمناصب التى شغلها ولكن بسبب النضال والقناعة والدور الذى أداه داخل النظام السياسى والتيار الذى كان يمثله داخل السلطة الحاكمة فى الجزائر فى مراحلها المختلفة، من هنا فإن خطاب مولود قاسم يحمل هذه المستويات المتعددة والمتشابكة والتى لا نهدف فى هذا البحث إلى تحليلها والكشف عن آلياتها، ولكن نريد الوقوف عند قضية مركزية من بين عدد من القضايا التى توقف عندها هذا المثقف.

هذه القضية هى قضية الدولة والأمة فى التاريخ، ولعله من باب الموضوعية أن نشير إلى تلك الخطابات حيث تظهر بوضوح مثل هذه القضية أو ما يتصل بها، فمثلاً نجد نصوصاً ذات علاقة مباشرة بالدولة والأمة والتاريخ فى «انية وأصالة» منها:

١ - مغزى الاحتفال بذكرى أمجادنا، خطاب بمناسبة الاحتفال المئوية لثورة المقرانى ٥ مايو ١٩٧١ بقلعة آيث عباس.

٢ - كفاح أمة، بنفس المناسبة ولكن بسوق الأحد.

٣ - تحية إلى بلكين : خطاب فى ملتقى الفكر الإسلامى السادس حول تأسيس بلكين للجزائر ومليانة والمدية.

٤ - لماذا تاريخ الجزائر فى هذه الملتقيات، فى الملتقى السادس ١٩٧٢.

٥ - المحرفون والقوم التبع ، مقدمة لكتاب الملتقى السادس.

٦ - اعتبار ماضينا لبناء المستقبل، نص محاضرة ألقيت فى الأكاديمية العسكرية بشرشال ٢٧ مارس ١٩٧٣ .

٧ - للأمم أيامها، افتتاحية العدد ٢٢ من الأصالة نوفمبر ١٩٧٤ .

أما فى كتاب، أصالية وانفصالية فنجد :

١ - الثورة الجزائرية وبعض المخربشين هنا وهنالك ، تعقيب فى الملتقى العاشر للفكر الإسلامى ١٠ يوليو ١٩٧٦ .

٢ - منسين لستم ، يا بنى رستم، كلمة افتتاح الملتقى الحادى عشر ٦ فيفرى ١٩٧٧ .

٣ - اهتمام الأمم بأيامها، خطاب مرتجل بمناسبة المولد النبوى الشريف الموافق ١ مارس ١٩٧٧ .

٤ - لسنا يتامى التاريخ ، حديث لجريدة المجاهد اليومية بتاريخ، ١٣ مارس ١٩٧٨ .

٥ - التاريخ ذاكرة الأمم ، مقال بجريدة المجاهد الأسبوعية بتاريخ ١ نوفمبر ١٩٧٩ .

٦ - استمرارية الأمم، جريدة الشعب ١ نوفمبر ١٩٧٩ .

ثم بعد هذ يأتى الكتاب الأساسى فى هذه القضية أو النص الأساسى واقصد بذلك «شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل ١٨٣٠» وهو نص كما قلنا يتألف من مقدمة نظرية وتعليقات عن معاهدات واتفاقيات ورسائل وصور، أو الأرشيف الديبلوماسى والعسكرى والمالى للجزائر الحديثة ، وحيث الأرشيف يلعب دور الدليل والبرهان ، وخاتمة فى صورة نتائج. على أنه من الضرورى الإشارة بداية إلى أن: هنالك المكرر من المقالات ، ولكن المكرر فى مثل هذه الحالات هو بغرض التثبيت فمن الواضح أن هذا الخطاب يستند على السلطة أكثر من استناده على

البرهان وان كان هذا لا يعنى غياب البرهان ولذا سيكون من الخطأ البحث فى حقيقته وإنما على الكشف عن وظيفته أى فى ما كان يؤديه هذا الخطاب.

يبدأ خطاب مولود قاسم دائماً من أطروحة أو من خطاب مغاير ليعمل على نقضها أو نقضه ، مع ذكر للشواهد والقرائن وبالاعتماد على أسلوب خاص فى التعبير يقوم على المجاز وضرب المثال والسجع والطباق وعلى أساليب بلاغية أخرى، وإلى كل تقنيات الخطابة مع حضور ملموس لسلطة الخطاب وإرادته فى التثبيت والنفى والقسمة والتصنيف والتصفيف متبوع بأحكام قيمية وأخلاقية قطعية، تعكس الموقف الأخلاقى وحتى الوجودى للرجل، وكل خطاباته مقرونة بمناسبات معينة وتستجيب أو تحاول ذلك لظروف معينة وتجيب عن أسئلة محددة وتقدم منظوراً أو تحديداً ، تأويلاً معيناً، مع إشارة واضحة إلى مرجعية ثابتة من خلال نصوص محددة ، ونعنى بذلك شواهد من نصوص عبدالحميد بن باديس، وبذلك يعلن بطريقة صريحة انتماؤه الفكرى.

فكيف تحدث مولود قاسم عن الدولة الجزائرية وكيف صاغ خطاب الدولة والأمة واستمراريتهما عبر التاريخ؟ يقوم خطاب مولود قاسم على فرضية الدولة الوطنية وحاجتها إلى كتابة التاريخ وإحياء التراث والذاكرة لـ (ان تاريخنا قد تعرض للتشويه والمسخ)[١٦]. لذا يرى أن من واجب الدولة إحياء كل الذكريات والمناسبات، ولقد قام هو بهذه الأدوار . فكتابة التاريخ مسئولية وطنية. لماذا؟ لأن الاستعمار قد قام بكتابة تاريخ البلاد من وجهة نظره بغرض تبرير استعماره فعلى المثقفين والوطنيين والمسئولين على شئون الدولة الوطنية، إعادة كتابة التاريخ الوطنى: (فليكن هنالك سباق ومنافسات إيجابية بين مختلف مؤسساتنا وخاصة البلديات وقسمات الحزب، ليكن هنالك تنافس بين مختلف جهات البلاد فى إحياء هذا التراث)[١٧]. والملاحظ أن جميع المؤسسات المسند إليها كتابة وإحياء التراث هى مؤسسات إيديولوچية بامتياز

---

(١٦) مولود قاسم : مغزى الاحتفال بذكرى أمجادنا ، فى انية واصالة، منشورات وزارة التعليم الأصلى والشئون الدينية، (م.ت) ص ١٥٧، ١٥٨.

(١٧) نفس المرجع ، ص ١٦٥.

حيث يتم تثبيت التاريخ والتراث عبر تلك المناسبات المختلفة محلياً ووطنياً، وإن كنا نشاهد أن هذه النزعة المحلية قد تحولت ، مع الوقت، إلى محلية وجهوية ثقافية، فكل ناحية تكبر وتعظم أبطالها وشهدائها وكتابها وتاريخها على حساب التاريخ الوطنى، مما أدى إلى تنمية ثقافة جهوية ومحلية تساندها القبلية والعروشية والعائلات وتلقى مساندة من ذوى المصالح ، هذه العمليات فى مجملها تقلل من حضور الدولة الوطنية ذاتها.

ان القيام بوظيفة إعادة كتابة التاريخ الذى كتبه الاستعمار فى نظر مولود قاسم، مبنى على اعتبار منطقى يظهر فى شكله صحيح، ولكن نتائجه على مستوى البحث العلمى غير مؤكد، يقول: «إذا كانوا يحتاجون إلى تبرير استعمارهم، فمن المعقول جداً طبعاً أن يشوهوا تاريخنا، وأن يبرروا استعمارهم للبلاد - كانوا يقولون أن هذه البلاد لم يكن لها تاريخ ، لم تكن لها أمجاد ، لم يكن لها وجود تاريخى كدولة وكأمة وكشعب»[١٨].

وإذا كان من غير الممكن تتبع مظاهر التشويه والتصحيح أو الكتابة التاريخية الاستعمارية وإعادة الكتابة الوطنية، من أجل التركيز على مسألة الدولة والأمة فمن الضرورى التسجيل بداية أن منطلق الأطروحة والفكرة والكتابة هو الاستعمار هو الخارج هو الآخر، وأن المطلوب هو نقض الأطروحة وإعادة الكتابة ونقض الفكرة المشوهة، من أجل (تربية شبابنا وجيلنا الصاعد)[١٩].

يقول مولود قاسم :(ان تاريخنا تعرض مدة طويلة للتشويه. فطالما قيل ان الجزائر لم تكن دولة أبداً، بل كانت أشتاتاً من عشائر وقبائل tribuds وأن ليست هنالك أمة فى الجزائر، وإنما القبيلة ضاربة أطنابها tribalisme كما يقولون بالفرنسية.

(١٨) نفس المرجع، ص ١٥٨-١٥٩.
(١٩) نفس المرجع، ص ١٥٩.

فأردنا أن نبين **عكس ذلك**[٢٠]، **بالاستناد فى الدرجة الأولى ، إلى المصادر الفرنسية**»[٢١].

وأن نقيض الأطروحة هو ما يقوله فى النص الموالى: (الجزائر لم تولد سنة ١٩٦٢! فبقطع النظر عن دولة **ماسينيسا ويوغرطا** ، وعن التاريخ الإسلامى بعصوره الذهبية ، من الدولة الرستمية والحمادية والزيانية ، جاءت هذه الفترة - يقصد الفترة العثمانية - التى أنجدنا فيها البشرية كلها، وليس العالم الإسلامى فقط بمساهمة كبير جداً فى مختلف المجالات)[٢٢].

وتفصيلاً فإن العهد العثمانى بوجه خاص، هو فى نظر الكاتب، يمثل عهد الدولة الجزائرية المستقلة بوضوح ومن دون لبس أو غموض أو شك أو ظن : «كنا دولة مستقلة ، تابعة روحياً فقط للخلافة ، ولكنا كنا دولة مستقلة كما تؤكده الكتب الفرنسية . . الجزائر كانت أول دولة اعترفت بالثورة الفرنسية»[٢٣] . . ولقد عملت كل ملتقيات الفكر الإسلامى على تثبيت هذه النظرة ابتداء من الملتقى الرابع فى قسنطينة ١٩٧٠ . وفى حديثه لجريدة «المجاهد اليومية» يعود ويؤكد هذه القناعة: «أسس الدولة الحديثة عقب الغزو الأسبانى خير الدين المدعو بربروس ، وذلك سنة ١٥١٩ ، أطلق عليها اسم «دولة الجزائريين» . وامتدت هذه الدولة فيما بعد إلى عين صالح وتمنراست . وقد استمدت المدينة الأولى اسمها من زيارة صالح رئيس لها سنة ١٥٥٥ . ويعنى هذا - بين قوسين - أن الأمة الجزائرية أنشأت وحدة ضمن حدودها الحالية بقرون قبل الوحدة الألمانية والوحدة الإيطالية بل وحتى الفرنسية بالنسبة إلى بعض مقاطعاتها»[٢٤].

---

(٢٠) التشديد من عندنا .

(٢١) لماذا تاريخ الجزائر فى هذه الملتقيات ؟ ص. ص: ٢٣٨-٢٣٩ .

(٢٢) مولود قاسم نايت بلقاسم، أصالية أم انفصالية؟ الجزء الثانى، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط ١، ١٩٩١، ص٢٣٣ .

(٢٣) نفس المرجع ، ص ٢٣٤ .

(٢٤) نفس المرجع، ص ٢٧٠ .

بعد هذا التأكيد، يستنتج الفكرة المركزية والمحورية ، والتى تتكرر فى أغلب نصوصه، يقول :« إذا كانت الدولة الجزائرية تبدأ من ماسينيسا ويوغرطا دون انقطاع، حتى طيلة العصور الكبرى للأمويين والعباسيين والموحدين ، حيث كانت هنالك كيانات تشكل مجموعات، وحيث كان مفهوم الدولة بالمعنى الحديث لا وجود له بعد، وحيث كانت الوصاية مجرد وصاية روحية حتى مع الدولة العثمانية، فإن الدولة الجزائرية فى العصر الحديث كان لها اسمها الرسمى وهو «دولة الجزائريين» أما سلطة الخلافة العثمانية فإنها كانت ذات سمة روحية لا غير، على غرار ما كان يمارسه الفاتيكان من سلطة على أوروبا المسيحية فى ذلك العصر، بل أقل مباشرة منها»[٢٥]. من هنا يرى ضرورة استبعاد بعض المصطلحات مثل «الدولة الفتية» أو «استقلال الجزائر» ، والقول باسترجاع الاستقلال أو استعادة الاستقلال أو التحرير.

أن الأفكار التى صاغها جزئية فى «انية واصالة» و «اصالية وانفصالية» ومن خلال أحاديث وتصريحات وخطب ومقالات ومحاضرات تجد صياغتها النهائية فى كتاب «شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة ١٨٣٠» وعنوان الكتاب يعكس مضمونه ويشير صراحة إلى مختلف الأفكار التى ذكرنا بعضها من خلال نصوص الكاتب، لذا نستطيع القول أن كتاب «شخصية الجزائر» هو التتويج النهائى لفكر هذا المثقف الجزائرى، أو لنقل كانت تلك النصوص مقدمات لنتائج تعكسها الدراسة أو لنقل أنها الذهاب بعيداً بتلك المقدمات. وما يقوله فى مقدمة ومدخل وخاتمة الدراسة، وما يحلله عقب كل معاهدة ورسالة واتفاقية سواء كانت حربية أو تجارية أو سياسية أو ديبلوماسية ، تأكيد لنفس الفكرة، فكرة استمرارية الدولة والأمة الجزائرية عبر التاريخ.

---

(٢٥) نفس المرجع ، ص.ص ٢٧٢ - ٢٧٣ . ونجد تكرار هذه الفكرة فى مقال آخر : استمرارية الأمم أو : مواقف ألمانية ونمساوية وسويدية من كفاحنا التحريرى المسلح.

ورفعا لكل لبس وغموض وشك وتخمين ، سنذكر بعض النصوص وما يسجل من جديد فيها، ففى حديثه عن الغرض من الدراسة ، يقول : «ان القصد من هذه الدراسة هو احكام الصلة بين حلقات سلسلة تاريخ امتنا الجزائرية العريقة، وابراز ما كان لها من شخصية دولية متميزة، ووجود دولى بارز، وهيبة عالمية أطبقت الآفاق»[٢٦] مما يعنى أن العملية إرادة واعية ومقصودة، كما يتجلى الهدف خاصة فى التركيز على العهد العثمانى الذى كان موضوع نقاش ورفض وإثبات، لذا ركز عليه ووصفه بقوله :« أنه - من أزهر وأزهى عصورنا ، ومن أمجد فترات تاريخنا العريق، وإزالة للغشاوة عن أذهان وعيون النشء الطالع والأجيال، قمنا بهذه المحاولة، وشملنا بها، فى استعراض خاطف - ولو بمجرد الذكر للعهود السابقة من تاريخ أمتنا الاثيلة الأصلية. .»[٢٧]، أنه حضور دائم للأمة والدولة. وكانت طريقته أو منهجه فى هذه الدراسة وكما وصفها بقوله هى: «فقد حرصت على إيراد كل ما وجدته من **صالح لنا، إيجابى فى تاريخنا، مما أوردوه هم بالذات**»[٢٨]. يقصد بطبيعة الحال المؤرخون الفرنسيون والغربيون عموما. والنص يشمل على إحالات لمؤرخين أجانب بل ان الخاتمة استنتاجات بناء على استنتاجات مؤرخين أجانب، والاختيار لا يحتاج إلى وضوح وتوضيح ولا إلى تعليق أو نقد، من هنا وجب القول أو التساؤل على الأقل وهو كيف يتم التعامل مع النص الآخر بمثل هذا التعامل، هل هذه ذاتية أم ذاتوية نقبل بالذى يتفق معنا ونرفض الذى يعارضنا وعندما يكون الأمر محض اختيار ومبنى على المصلحة والمنفعة فيكف لنا أن نعترض على المعارض اللهم إلا وفقاً للمصلحة والمنفعة، وهنا يطرح سؤال أساسى أية منفعة ومصلحة يمثلها خطاب مولود قاسم، هل يمثل مصلحة السلطة أم مصلحة الوطن، وهل من مصلحة الوطن أن يبنى خطاب الدولة والأمة على المصالح فقط من دون اهتمام بالحقيقة؟

---

(٢٦) مولود قاسم نايت بلقاسم : شخصية الزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة ١٨٣٠ ، ص ٩ .
(٢٧) نفس المرجع ، ص ١٢ .
(٢٨) نفس المرجع ، ص ٢٠ ، التشديد من عندنا .

وبعد عرضه لبعض المعاهدات، يصف مولود قاسم دولة الديات بكل أوصاف الاكبار والتبجيل والتعظيم، يصعب على القارئ المطلع وغير المطلع، النقدى والعادى، أن يجيب عن سؤال أولى وهو كيف حدث وان سقطت هذه الدولة أمام الحملة الفرنسية سقوط قصر من ورق؟ يقول عن هذه الدولة، دولة الديات التى سلمت مفاتيح مدينة الجزائر إلى الغزاة ورحل عنها رجالها أو عسكرها، حاملين غنائمهم من دون مقاومة تذكر، يصف مولود قاسم هذه الدولة ، بقوله: «فلقد كانت الدولة الجزائرية فى عهد الديات ، خاصة دولة قمقامة - يقصد عظيمة - فلم تكن فقط عضواً فى مجلس الكبار، ولا فحسب بين الأكابر، بل كانت على رأس الأكابر، وكان عهدها من أزهى حلقات السلسلة الطويلة لتاريخنا العريق، عهد عزة ومجد وجهد وجهاد وشخصية دولية ووجود متميز بارز وهيبة عالمية ومساعدة للضعيف وهيمنة على قوى الشر فى غرب ذلك الوقت وشرقه وفى شماله وجنوبه»[٢٩]. وكل هذا بناء على نصوص اتفاقيات ومعاهدات وبشكل خاص بناء على العبارات التى ترد فى أسفل ونهاية الاتفاقيات وما فيها من تعظيم للديات؟ من هنا لا عجب أن يصف تلك الدولة فى أول فقرة من مدخله بقوله : «هنالك من بين أمم الدنيا أمة عريقة ظلت مدة قرون ثلاثة متوالية سيدة البحر الأبيض المتوسط»[٣٠] ثم يعرض الأطروحات المضادة لوجود الأمة الجزائرية والدولة الجزائرية، مثل أطروحه موريس طوراز وادغار فور وشارل دغول وفاليرى جيسكار ديستان وميشيل جوبير ودائرة المعارف العالمية الفرنسية وبيار نورا وحسنين هيكل وفرحات عباس، الذى توقفنا عند موقفه والذى يتجاهل أو يرفض مولود قاسم، تطوراتها. لأن همه كان هو إثبات (أنها الأمة الجزائرية المجيدة ، التى لا تقل عراقة ولا تاريخية ولا أصالة ولا أثالة ولا أقدمية عن آية أمة تاريخية عريقة أصلية أثيلة قديمة والقدم للّه»[٣١]. وهنا لا يجد السند إلا فى الميثاق الوطنى الذى أكد على هذه الحقيقة فى

---

(٢٩) نفس المرجع ، ص ٢٦ ، التشديد من عندنا.

(٣٠) نفس المرجع، ص ٢٩.

(٣١) نفس المرجع ، ص ٤٢.

نظره، ولكن الميثاق كما هو معلوم هو وثيقة إيديولوچية للحزب الحاكم. أو ما يشهد به الغير، أو كما يقول: «ان شخصية الجزائر الدولية ووجودها المتميز البارز وعراقة تلك الشخصية وتاريخية الوجود وهيبتها التى توحى بالرهبة والوقار كل ذلك تشهد به وثائق وكتابات الغير والفضل ما يشهد به الغير حتى بل وخاصة إذا كانوا من الأعداء والخصوم»[٣٢].

وبعد إحالات ونصوص على معاهدات وخاصة تلك الخاصة مع الباب العالى أو الخلافة العثمانية، يستنتج الكاتب أن علاقة الجزائر بالخلافة العثمانية تتميز بميزتين:

١ - علاقة تعاون ومساعدة وتبادل.

٢ - استقلالية الجزائر استقلالاً تاماً وسيادتها الكاملة[٣٣]. وطبعاً على المؤرخين أن يبينوا لنا معنى التبادل فى ذلك الوقت ومعنى الاستقلال والسيادة. هاتين النتيجتين يعبر عنهما بطريقة أخرى وهى أن: «الجزائر كانت تتصرف كجزء من الخلافة العثمانية، أى كجزء لا يتجزء من كل شامل، **فى ظروف الشدة، ولكنها فى الظروف العادية** تتعامل مع الخلافة العثمانية - فضلاً عن الدول الأخرى - بكل استقلالية وسيادة، وتحرص بكل صرامة على فرض احترام هذا الاستقلال التام وهذه السيادة الكاملة بكل حزم وعزم، وبكل شدة وحدة»[٣٤]. وعلينا أن نفهم ما نشاء من الشدة والعادية ومن الاستقلال التام والسيادة التامة، وأن لا نتذكر الإسقاطات ولا تلك النزعة الاستقلالية التى رافقت الاستقلال ولا ازدياد موارد البترول ولا الشعور بالقوة والقدرة والمنعة والتمكن الذى لم يدم طويلاً؟

---

(٣٢) نفس المرجع، ص ٤٨.
(٣٣) نفس المرجع، ص ٨١.
(٣٤) نفس المرجع، ص ٨٢.

وإذا كان الجزء الأول من الكتاب خصه لدولة الديات وعلاقتها مع الخلافة العثمانية والدول الأوروبية، فإن الجزء الثانى خصه للعلاقة مع فرنسا. وهكذا، وبعد أن أورد مجموعة من تلك الاتفاقيات والمعاهدات والمراسلات التى تحتاج إلى تحليل ضمن سياق تاريخى معين وتحليل لمعطياتها يصل إلى النتيجة التى كانت فى الحقيقة مقدمة وهى كما يقول: «الجزائر لم تكن فقط دولة، ولم تكن فحسب دولة عظمى Grandle - Puissance بين الدول العظمى، بل كانت فى قمة الدول العظمى Super Puissance - وهذا هو ما أردنا بيانه وتأكيده بهذه المحاولة»[٣٥]. هذه النتيجة العظمى يصوغها بعد استخلاصات من مؤرخين أمثال وسبنسر، واورين وديبى وبلانتى وغاليبارت وشارل اندرى جيليان.

ان وجود الدولة الجزائرية والأمة الجزائرية لم ينته بسقوط هذه «الدولة العظيمة» التى نجد لها أثراً فى حياتنا ما عدا بعض أحياء القصبة وبعض المساجد التى لا تعكس حتى تلك التى نجدها فى دول أخرى انتسبت أو ألحقت بالخلافة العثمانية، قلت ان استمرار الدولة ينعكس فى نظر مولود قاسم فى سلسلة المقاومات التى بدأت بثورة الأمير عبدالقادر (التى كانت ثورة فوارة على الاستعمار شملت البلاد، وأقامت نواة دولة حديثة)[٣٦]، ان هذه المقاومة، التى هى دليل وجود الدولة، لم تكن أى واحدة منها محلية بل كانت كلها وطنية. وإذا كان الاستعمار يقول بمحلية المقاومة فنقيض الأطروحة هى: (الكفاح لم يقف عند نقطة معينة من البلاد، فقد كان دائماً ممتداً وشاملاً)[٣٧]. وثورة الأمير عبدالقادر، على سبيل المثال: (شملت البلاد من الحدود إلى الحدود)[٣٨]. وعلى المؤرخين أن يقولوا لنا اين تكمن الحقيقة التاريخية بين الأطروحة الاستعمارية واطروحات مولود قاسم. كذلك فإنه من بين تلك الجزئيات هو رفضه للأطروحة القائلة ان زعماء المقاومة ثاروا ضد الاستعمار لأن مناصبهم

---

(٣٥) نفس المرجع، الجزء الثانى، ص ٣٣٢.
(٣٦) نفس المرجع، نفس الصفحة يجب ذكر عنوان المقال.
(٣٧) نفس المرجع، ص ١٦٩.
(٣٨) نفس المرجع، ص ١٧٠.

تعرضت للتهديد من طرف الاستعمار، أو بتعبير آخر أنهم قاوموا دفعاً عن مصالحهم لأنهم كانوا أصحاب مناصب عند الاستعمار ، أن هذا فى نظر مولود قاسم بمجرد دعاية استعمارية لأنهم ما ثاروا إلا دفاعاً عن الوطن أى نتيجة حضور للفكرة الوطنية؟

وإذا كانت هذه الثورات شاملة ووطنية فانها مستمرة لم تعرف الانقطاع أنها «السلسلة المحكمة الحلقات التى تبتدئ من ١٨٣٠ وتستمر حتى ١٩١٦»[٣٩]. وهذا بناء على تقرير الأكاديمية الاستعمارية الفرنسية، ويضيف لها مولود قاسم ثورات أخرى، يسميها بالثورات الروحية، مثل تلك الثورة التى نظمها ابن باديس (فى جميع أنحاء البلاد) وحزب الشعب، والتى استمرت حتى ثورة ١٩٥٤، ان مولود قاسم لا يكتفى بأحكام السلسلة فى العصر الحديث، بل يذهب بعيداً فى الأحكام والربط، لأن المقاومة عنده لم تبدأ مع الاستعمار الفرنسى بل كانت الجزائر وعبر تاريخها الطويل أمة المقاومة، يقول: « فنحن نقول أن الجزائر حتى قبل الإسلام لم ترض بالهوان بل قاومت المقاومة المستبسلة ، التى لم تقم بها الشعوب العربية إذ ذاك فى الشرق»[٤٠] أنه التاريخ الذى تحكمه جدلية الغزو والمقاومة، الاستعباد والانعتاق، والاستعمار والتحرر ، والذى يجسده العنف الممارس فى التاريخ والحاضر.

بعد هذا العرض لأهم أفكار هذا الكاتب نخلص إلى القول أنه : على عكس الأطروحة الاستعمارية القائلة بغياب الدولة والأمة، يعمد مولود قاسم إلى نقضها بالتأكيد على وجود الدولة والأمة واستمراريتها، إلا أن المشكل الذى يطرح هنا هو كيف نفهم مثلا ظاهرة الغزو الذى عرفته الجزائر وديمومته، كيف نفهم ظاهرة الضعف الثقافى والفكرى، كيف نفهم ونحن نعيش فى دولة مستقلة وذات سيادة غياب ثقافة الدولة التى يصرح بها القائمون على الدولة أنفسهم كيف نفهم غياب تقاليد الدولة

(٣٩) نفس المرجع ، ص ١٧٧ .
(٤٠) لماذا تاريخ الجزائر فى هذه الملتقيات؟ ص ٢٣٤ .

فى التسيير وحل المشاكل والأكثر من هذا كيف نفهم ظاهرة العنف فى المجتمع الجزائرى وتخصيصاً كيف نفهم استمرارية الدولة وقوتها وصلابتها عندما نستحضر التقلبات والتغيرات والانقطاعات والانفجارات والحروب المعلنة وغير المعلنة ليس فى تاريخ الدولة الجزائرية مجازا ولكن منذ الاستقلال إلى يومنا هذا كيف نفهم ما يحدث فى الجزائر خلال الأربعين سنة من عمر الاستقلال كيف نفهم ما يحدث فى الجزائر وفق منطق الاستقرار والثبات والاستمرارية والعظمة هل نحن بحاجة إلى أن نتحجج بالواقع لنقول عكس الأطروحة وهكذا ندخل فى منطق جدلى فج وشكلى وصورى يبدأ من الأطروحة ونقيض الأطروحة ليخلص إلى تركيب بالقول بأن هنالك وهنا وان مجموع ما هنالك يصلح جواباً لجميع الاسئلة ليست هذه هى مهمتنا . أننا نريد أن نتعرف على حاضرنا وعلى الآليات التى تحكمه وأن نقدر على تشخيصه ولعل أول تشخيص نستطيع القيام به هو تشخيص خطاب يقول بالاستمرارية والتواصل والقوة والمنعة والأصالة والنسابية وأن نكشف عن الآليات التى تتحكم فيه والوظائف التى يؤديها بمعنى أننا نسعى لتقديم تحليلة لمسألة الدولة والأمة وليس إقامة جدلية وهذه التحليلية تتطلب أول ما تتطلب :

١ - احترام تاريخية المفاهيم، فعلينا أولاً أن نرد للمفاهيم تاريخيتها، ومفاهيم الدولة والأمة والهوية والوطن والتاريخ المشترك والمصير الواحد من المفاهيم التى لايمكن استعمالها من دون ضوابط تاريخية اللهم إلا فى حالة الاستعمال الإيديولوچى الذى ثبت أنه محدود تاريخياً ومعرفياً. ونص مولود القاسم لا يعير أى اهتمام لتاريخية المفاهيم المستعملة فالدولة والأمة والمقاومة من المفاهيم الحاضرة فى نظره فى تاريخ الجزائر بدءاً من ماسينسا إلى يومنا هذا.

٢ - يجب الخروج من منطق المماثلة والقلب ورد الفعل، الذى يظهر من خلال الأطروحة وقلبها وهذه عملية تستحضر ذلك القول الشائع « لو قالت فرنسا لا إله إلا الله ما قلتها» ان هذا الموقف مفهوم على الصعيد السياسى لكن على الصعيد العلمى والتاريخى يصعب التأكد من نتائجه التى تؤدى إلى عكسها غالباً. وان قلب الفرضيات أو الأطروحات بالرغم من ما تلقاه من استحسان ومن رضى عن النفس

عند الجمهور فإنه فى الوقت نفسه وكما يؤكد تاريخنا المعاصرين منطق يحمل مخاطرة، لأنه يؤدى إلى الرضى عن النفس والثقة المفرطة فى عالم متغير باستمرار. ولذا وجد الخروج من منطق المماثلة والنقض إلى منطق التحليل والتجزئ والتعميق، إلى ضرورة إدراك العقلانية العاملة فى التاريخ.

٣ - من الواضح والبين أن الخلفية الفكرية لخطاب الاستمرارية يجد سنده فى تأويل لمعطيات التاريخ ولكن فى تحقيق لسند متجسد فى نصوص ابن باديس مع الاعتماد على خطوتين نقض أطروحات المؤرخين الرافضين النافيين واعتماد شهادات المؤرخين المؤكدين المثبتين مهما كانت نحلهم ومللهم وهذا تفكير بسيط بل ومبسط للمسائل والقضايا الشائكة ، كما أننا لسنا فى حاجة إلى الإشارة إلى غياب المعيار العلمى فى مثل هذا الخطاب. فمثلا ان استغلال المصادر يعرف تأويلاً خاصا عند الكاتب وخاصة المصادر الفرنسية، وان كان لا يذكر دائماً تلك المصادر، ولكن من الواضح أن ذكر المصدر الفرنسى المساند يتخذ صبغة وصفة الدليل، ويبرر مولود قاسم أخذه بالمصدر الفرنسى يقوله : «لانه إذا كان هنالك من المصادر الفرنسية ما كان أغلبها مزورا ، ومحرفاً للتاريخ، فهنالك بعض المصادر القليلة التى أثبتت الحقيقة، ربما لا اخلاصاً للحقيقة ولا نزاهة علمية منها، ولكن نظراً للمعارضة الشديدة، نظراً للخصومات بين الأحزاب السياسية إذ ذاك ، بين الاتجاهات المختلفة فى فرنسا إذ ذاك، ولهذا اضطر البعض من المؤرخين الفرنسيين، ليفضح بعضهم بعضا، إلى قول الحقيقة عن الجزائر»[٤١]. بمعنى أن الحقيقة ليست بريئة وعليه نسأل نحن الذين نعيش سقوط الأقنعة أن الحقائق المقدمة من طرف مولود قاسم هى كذلك ليست بريئة ، ثم ما هى هذه العقلية التى ترجع كل شيء إلى المعطى السياسى. أو تحيله إلى المعيار السياسى.

٤ - هنالك ما يمكن تسميته بوهم التاريخ الاتصالى وخلفيته والقياس على نموذج قائم هو نموذج المركزية الأوروبية ، ففى الوقت الذى يدعو فيه مولود قاسم

(٤١) كفاح أمة، نفس المرجع، ص ١٦٨.

إلى الانية والأصالة وينتقد الانفصالية يسقط من حيث يدرى فى النسج على نفس النموذج، هنالك الدولة الأمة المستمرة فى أوروبا وهنا كذلك لدينا الأمة والدولة المستمرة والعظيمة، بل أكثر من هذا ، أنه إذا كانت تتميز دولتكم بالاستمرارية فإن دولتنا سابقة فى الاستمرارية، أنه البناء على نفس النموذج ولكن فقط بنقضه وهذا لا يعنى أصالة بقدر ما هو تضييع للمختلف وعدم إدراك للخاص، علماً أن العلم أى علم، يقوم على معرفة الخاص والجزئى أولا.

٥ - ان فكرة التاريخ المستمر والاتصالى فكرة تنتمى إلى فلسفة التاريخ وليس إلى علم التاريخ، والمؤرخون المحدثون يتحدثون أكثر عن ظواهر الانقطاع والانفصال أكثر من ظواهر الاتصال والاستمرار، أو لنقل أن الاستمرارية فرضية فلسفية وتحقيقات تاريخية معينة أثبتت دراسات تاريخية وفلسفية أخرى، محدودية فكرة الاستمرارية وبأنها لا تعدوا أن تكون فرض فى التاريخ، وعندما يقول مولود قاسم بالاستمرارية فى التاريخ فهو لا يقول إلا بفرضية فلسفية وباختيارات تاريخية، مما يفتح المجال للحديث عن المنقطع فى التاريخ الجزائرى.

٦ - من الضرورى، فى نظرنا، الخروج من المنطق المماثلة والنقض وذلك بالتخلى عن المسألة المطروحة من الآخر، وتفكير الإشكالية النابعة من آنيتنا وحاضرنا وهى كيف ظهرت السلطة فى الجزائر وكيف تعمل، ذلك أن خطاب الوجود أو العدم أو الاستمرارية والقطيعة، هو فى نهاية التحليل، خطاب السلطة القائمة.